في حلب ودمشق الى عهد قريب

وكان الفاتحون يأخذون في القرون الوسطى في جملة ما يغنمون الطرائف البديعة وأدوات الزينة والابداع . هكذا فعل تيمورلنك في القرون الوسطى ، شحن معهُ من دمشق صنّاع هذه البدائع وما أبدعوهُ ، وهكذا فعل السلطان سليم العثماني فتح مصر فنهب منها اجمل آثارها التي استطاع حملها وزين بها قصره وقصور جماعته في القسطنطينية . وذكر المؤرخون ان بعض ملوك الاندلس من العرب كانوا يغرمون في قصورهم التماثيل الجميلة من غير نكير ، وفيها صور الآدميين وغيرهم . وكان اهل القرون الوسطى في اوربا زمن الحرب الصليبية وبعدها يتنافسون فيما يجلبونهُ من الاقمشة والبسط وأدوات الزينة من الشام ، ولما جاء القرن الاخير أخذوا ينقلون الى متاحفهم ما أبقتهُ صنع الايدي من اهل المدنيات القديمة من تماثيل ونصب وأحجار زُبر عليها كتابة ، وفي بعض متاحف اوربا ولاسيما في متحف اللوفر في باريز والمتحف البريطاني في لندرا ومتحف برلين ومتاحف ايطاليا وغيرها كثير مما عثر عليهِ الباحثون من العاديات الحجرية في اليمن والشام ومصر ولاسيما من البلاد الشامية . وقد اخذت عادياتنا تسافر من بلادنا منذ اخذ علماء الآثار يبحثون في ارضنا سهولها وجبالها وما كتبهُ كثير من علماء المشرقيات والعاديات في القرن التاسع عشر دليل عظيم على ذلك ، وقد نشروا ابحاثهم في كتب خاصة ومقالات لهم في المجلات الاثرية والعادية والعلمية ومجلات المجامع العلمية

اما نحن سكان هذه الديار فلم تكن لنا عناية بهذا الشأن بل قلّ جدًّا من اهتدى الى الاحتفاظ بما خبأتهُ الايام في بطون هذا الصقع وكنا أزهد الناس فيها حتى نقلت آثارنا وقاسمنا امام اعيننا كما نقلت كتبنا ونحن ضاحكون مستبشرون ، وانتفع بها القوم هناك واكلوا بها تاريخ المدنية . ولما وقع الانتباه في الحكومة العثمانية اخذت تمانع بعض الشيء في نقل هذه التحف والطرف ، ونقلت بعض ما عثر عليهِ من المصانع في خرائب صيدا وتدمر وغيرها فزيّنت بها متحف الاستانة . وقد ندب بعض علماء الآثار من الانكليز وحفروا بطرق عجيبة مغارة الصخرة في المسجد الاقصى فذهب ما فيها ولم يعلم عنهُ شيء

وكم من بعثة أثرية قامت بحفريات في بلادنا واخذت ما عثرت عليهِ ولم تأخذ الدولة العثمانية حقها منهُ ولسان حال الباحثين ماورد في الأمثال العربية « لا يحزنك دم ضيّعهُ اهله » . وقد طلب منها في مؤتمر الصلح بباريز إعادة ما اخذتهُ هي والمانيا خلال الحرب العامة من هذه الديار من الآثار والعاديات

ولقد كنا نرين للحكومة التركية منذ ست وعشرين سنة ان تنشىء لدمشق متحفاً صغيراً

تجمل فيه العاديات وبدائع الصنائع فكان عمالها يتشاغلون عن ذلك لانهم يحبون ان يكون كل فضل في الاستانة وان تكون سائر الولايات قرى ومزارع للاستثمار على طريقتهم حتى اذا نادت سورية بالحكومة العربية صحت عزيمة هذه على إنشاء متحف فاتخذت له سنة ١٣٣٧ — ١٩١٩ دار المدرسة العدلية من أجل قصور الفيحاء ومصانع العرب الباقية من القرون الوسطى ، واخذت تجمع بهمة المجمع العلمي ما بقي من الآثار النفيسة . فهو اول متحف عربي في هذه الديار ، سار القائمون به على قدم الغربيين في نظامه . وعسى ان لا يمضي بضع سنين أخرى حتى يكون شيئًا بكل أنواع الابداع الذي تم في هذا القطر منذ اربعين قرناً الى اليوم . وحياة المتحف العربي بمساعدة الامة له . ولم يقصّر بعض من لديهم مثل هذه التحف والطرف في اهدائها لتجعل في دار آثار الامة عنوان ارتقائها ونموذجاً على معرفتها بتاريخها لاجرم ان هذا المتحف هو البزرة الاولى التي أُلقيت في هذه التربة المخصبة المهيأة لأنواع النماء والاثراء يستفيد منهُ اهل الاجيال الخالفة ما يغني غناءه في تربية عقولهم وعيونهم وأناملهم ويعتبرون بماضي الصناعة عند الاقدمين ، وما كان لاجدادنا من الايادي البيضاء في الفنون الجميلة بين المحدثين

البعثات الاثرية الفرنسية

اوفدت اكثر حكومات الغرب بعثات علمية للتنقيب عن آثار الشام نخص منها بالذكر البعثة الافرنسية التي رافقت حملتها في سنة ١٨٦٠ م والجمعية الانكليزية للبحث عن آثار فلسطين . ثم تضاعفت الهمم فجاء من الافرنسيين رنان والدوق دولين ودوسلسي ودوفوكوين وكارمون شانو ودوسو وفانزان وغيران ، ومن الانكليز روبنسون ومادن وسايس وويلسون وفارن ، ومن الالمان اوتوتينيوس ، ومن السويسريين ماكس فان برشم . واهم الامكنة التي نقبوا فيها هي تل الحسي وتل زكريا وتل الصافي وتل الجديدة وتل الجزر وتل تعناك وتل المتسلم وعكا ويافا والقدس وصيدا وصور وجبيل وعمريت وجزيرة ارواد وبعلبك وفي عدة اصقاع في الشام الشمالية

وبينما كانت هذه البعثات مجدة في عملها ، كانت الدولة العثمانية في سبات عميق لا تبدي حراكاً مكتفية بمراقبة هذه البعثات لاقتسام الغنيمة وايداعها متحف الاستانة الوحيد . ولم تفكر قط بعمل حفريات ، كما انها كانت تمانع بانشاء فروع لمتحفها في الشام او في غيرها من البلاد العثمانية ، وحجتها في ذلك ان آثار البلاد اذا جمعت في مركز واحد ، وضم بعضها الى بعض نتجت من ذلك فوائد علمية وعملية لا ترجى من تعدد دور الآثار ، وذلك اسوة بمتاحف اكثر الامم الغربية ، وعملاً برأي اكثر علماء الآثار . ولكنها تجاهلت

أن ما يصلح لبلاد لها وحدة تاريخية لا يعمل به في بلاد ضمت تحت لوائها شعوباً مختلفة ومدنيات متباينة كالامبراطورية العثمانية

ولذلك كان حين عمّ الدولة العثمانية أنماء متحف الاستانة فاهملت امر الآثار القديمة في بلادها ، فلم تعهد الى أناس يتعهدونها او يراقبون سيرها ، ولذلك درس كثير من البنايات الاثرية البديعة ، واقبل الاهلون في كل ناحية ينقبون عن الآثار القديمة بغية الاتجار بها ، فأصبحت هذه التجارة ذات شأن في البلاد ، وغصت متاحف اوربا بآثار الشام ، واقتنى غواة العاديات الاجانب كثيراً منها . وبهذه الصورة وبفضل الامتيازات الاجنبية تمكنت الجامعة الاميركية والكلية اليسوعية في بيروت وغيرهما من المعاهد من إنشاء كل منها متحفاً خاصاً بها ، وجمع الدكتور فورد في صيدا وغيره في حلب من الاجانب مجاميع مهمة من آثار الشام . ولم يعرف من الشاميين من اشتهر بجمع الآثار القديمة بل كانوا لا يعبأون بها ، ولا يقيمون لها وزناً . ومن كان منهم يملك طرفة او اثراً يتنازل عنها مقابل دريهمات معدودة على ايسر صورة ، حتى تجردت اكثر البيوت والأسر من نفائسها

آثارنا وآثار غيرنا

ولقد تبين من الحفريات التي أجريت في الشام ومن الآثار التي اكتشفت فيها ان آثارها تختلف كثيراً عما وجد من نوعها في البلاد المجاورة لها ، ولا يرجى ان نعثر في هذه البلاد على آثار تثير بجسامتها إعجاب العامة قبل الخاصة ، كما هو شأن آثار مصر واشور وفارس . والسذاجة في الصناعات تغلب على الشاميين منذ القديم ، وهذا ناشئ عن طبائعهم ومعتقداتهم . فالشامي في جميع أدوارهِ التاريخية يميل الى الساذج وهذا يظهر في صناعاته وفلسفته الدينية ، وتتجلى في هذه البساطة مواهب الشامي الفنية ، فقد جمع بين الساذج والجميل فأحسن الصنع وأبدع . وتقلّ الآثار المنقولة النفيسة التي اكتشفت في الشام بالنسبة لما وجد في غيرها من البلدان المجاورة ، وهذا القليل يشهد ببراعة الصانع الشامي وذوقه السليم ، وهو ذو مكانة بين اقرانه من متفنني بقية الشعوب

وليس معنى قلة العاديات عدم انتشارها في البلاد بل لانها لم تصل الينا لأسباب وعوامل شتى . اولاً لأن تربة الشام رطبة لا تحفظ ما يودع فيها . وثانياً لأن الشاميين قلما يجملون في مدافن موتاهم نفائسهم ، كما هو شأن المصريين وغيرهم من الامم القديمة . بل يكتفون بالاشياء الساذجة المتنوعة . فاذا أضفنا الى خلو القبور من الاعلاق ، وما قد كتبهُ اشمونزار ملك صيدا على تابوته مخاطباً به نابشي القبور ، ناصحاً لهم ان لا يشكوا

حرمتهُ ، مؤكداً ان لا ذهب ولا فضة في قبره — ندرك من هذا كل سرّ ندرتها بين أيدينا . فاذا كان هذا حال ملوكهم فما بالك بالرعية . وخلو القبور منها هو حجة للشام لا عليها ، ودليل على سمو عقيدة سكانها ، ونضج فكرتهم منذ القديم ، لان الشامي كبقية الشعوب السامية يغلب عليه الاعتقاد بأن الجسم مادة تتلاشى مع الزمن ليست جديرة بالاكرام الذي يبالغ به غيرهم من الشعوب . ومع هذا فقد انتشرت في الشام عادة وضع بعض اشياء في القبور وذلك بمؤثرات خارجية ، واقتباس عادات الغالب ، لان الشام كانت في أكثر أدوار تاريخها خاضعة لسلطان اجنبي

الشام مهد ثلاث ديانات يدين بها اليوم معظم البشر . وهذه الديانات لم تكن ابنة ساعتها بل هنالك عوامل مهدت لها السبيل مدة قرون عديدة قبل ظهورها . ولذلك يهم كل منا معرفة تطورها قبل نشوئها . وهذا ما يزيد في مكانة آثار الشام ويجعل اقبال العلماء عليها أكثر من سواها لعلاقتها الكبيرة بنظامنا الاجتماعي الحاضر . وقد أدركت جمعية الامم هذا الامر واحتاطت لهُ خوفاً من المزاحمة او استئثار دولة بهذه الآثار دون سواها . ولذلك اشترطت في المادة (١٤) من صك الانتداب ان القانون الذي سيسن لحماية العاديات يجب ان يستمد روحهُ مما يدعو الى التنشيط أكثر منهُ الى التثبيط ، كما انها اشترطت على الحكومة المنتدبة عند منحها اجازات بالحفر ان لا تتصرف بشكل يرمي الى حرمان علماء اي شعب كان تلك الاجازات دون اسباب موجبة وهكذا أصبح الباب مفتحاً لجميع الامم

تأسيس دور الآثار

وقد تضاعف نشاط البعثات الاثرية الاجنبية عقب الهدنة في سنة ١٩١٨ ، وأظهرت قيادة جيوش الحلفاء في الشرق عناية كبرى بآثار الشام ، وعهدت للاخصائيين في جيوشها بدرس الآثار في هذه الديار ورفع التقارير عنها ، وشددت النكير على العابثين بها . ومن جملة مقررات المؤتمر الافرنسي الذي عقد في مرسيليا سنة ١٩١٩ للبحث بشؤون الشام العامة اقتراح على الحكومة الافرنسية بانشاء ديوان للآثار القديمة ، والتشبث باسترجاع ما أخذتهُ الحكومة العثمانية من آثار البلاد ، وقد حققت المفوضية الافرنسية في الشام الاقتراح الاول ، فانشأت لها ديواناً للآثار القديمة وحذت المفوضية الانكليزية حذوها في فلسطين وشرق الاردن

ولم تكن الشام في عهد الملك فيصل أقل عناية من تينك الدولتين . فقد اغتنم هذه الفرصة بعض مفكري البلاد وفي مقدمتهم الاستاذ مؤلف « خطط الشام » فاقترحوا على الملك انشاء متحف في دمشق ، فقوبل هذا الاقتراح بارتياح عظيم . وما لبث الملك ان أصدر امرهُ بذلك الى الاستاذ بأمر تحقيقه على ان يكون فرعاً للمجمع العلمي العربي الذي

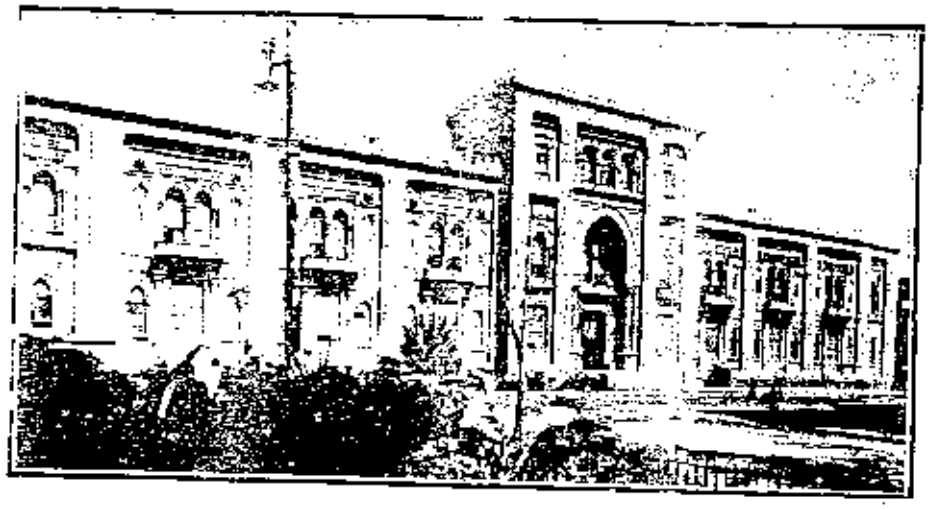

متحف الآثار العربية في القاهرة

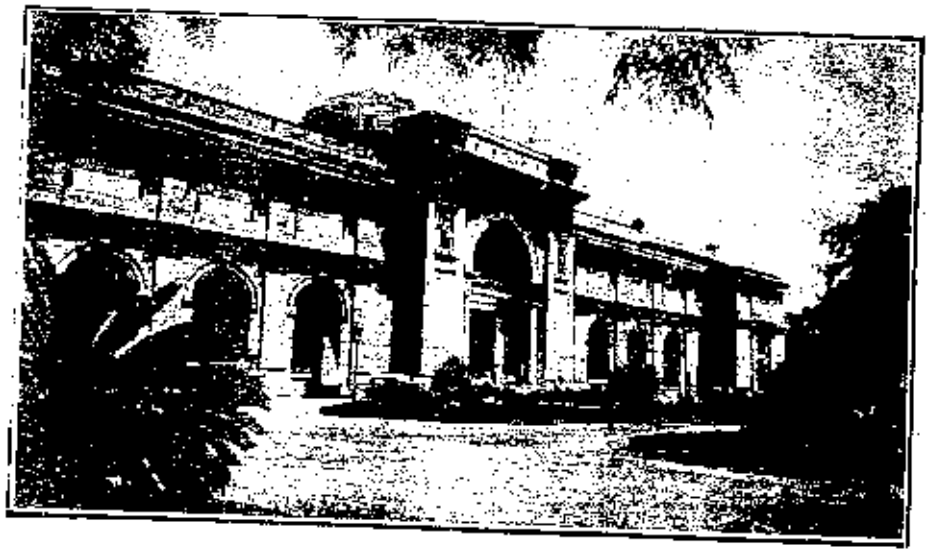

دار الآثار المصرية في القاهرة

منتطف مارس ١٩٢٩

أمام الصفحة ٢٦١

كبلنغ الشاعر والمؤلف البريطاني وزوجتهُ

مقتطف مارس ١٩٢٩

امام الصفحة ٣١٧

أسسهُ الرئيس ايضاً . وفي عهد الانتداب الافرنسي أنشأت الحكومة السورية متحفاً آخر في حلب وأنشأت حكومة لبنان وجبل الدروز والعلويين متاحف في بيروت والسويداء وطرطوس وكذلك أنشأت كل من حكومتي فلسطين والشرق العربي متحفاً جملتهُ الاولى في القدس والثانية في عمان . وجميع هذه المتاحف نمت بسرعة عظيمة بفضل ما اشترتهُ واستهدتهُ من الآثار ، وما نالها مما اكتشفتهُ البعثات الاثرية في مناطقها . وبمقتضى تشجيع الحكومات المحلية والسلطات المنتدبة أصبحت الشام ساحة عمل دولي كبير

ولقد قامت البعثات الافرنسية بالبحث عن الآثار في صيدا وام العواميد وكفر الجرة وبيروت وجبيل والقرية وليا في منطقة الحكومة اللبنانية، وفي السويداء وقنوات والشهباء في جبل الدروز ، وفي طرطوس من أعمال حكومة العلويين ، وفي تل النبي مند (قدش القديمة) وفي المشرفة (قطنا القديمة) والنيرب وارسلان طاش والقصر الاحمر من اعمال دولة سورية ، وقامت بعثتان مختلطتان بأعمال التنقيب في قلعة الصالحية (دوراسا وروبوس القديمة) على شاطئ الفرات وفي مدينة تدمر وتحرت البعثة التشكوسلوفاكية آثار الشيخ سعد وتل ارقاد ، ونقبت بعثة المانية في رأس العين شمالي الشام من عمل حكومة سورية . وحصرت البعثات الانكليزية والاميركية أعمالها في منطقة فلسطين والشرق العربي، فنقبوا عن الآثار في تل المتسلم (مجدو القديمة) وبيسان وسبسطية (سمرة القديمة) وسيثم وبيت جبرين والقدس والنابغة وجرش

متحف دمشق

تختلف مجموعة دار الآثار في دمشق عن مجاميع متحف الشام للعناية التي بذلتها بآثار الفطر الشامي على اختلاف أدواره التاريخية وخاصة العهد الاسلامي . وحريٌ بدمشق عاصمة الأمويين ، ومهد الحضارة العربية ، أن يكون لها متحف يحيي ذكرى هذا الماضي المجيد . ورغم ندرة العاديات الاسلامية المنقولة في ربوع الشام وأسعارها الباهظة ، تمكنت دار الآثار من جمع أعلاق قيمة . منها مجموعة نقود اسلامية ، ومجموعة خزف عربي ، ومجموعة مصاحف مخطوطة ومذهبة . ومجموعة خشبية أخص بالذكر منها جانباً من سدة جامع من خشب الحور الرومي آية في جمال الصنع وحسن الذوق ، مزينة بنقوش عربية بديعة ، وكتابات قرآنية كوفية مزهرة متناسقة جميلة جداً . وتابوت مزين مجموع بشكل حشوات صغيرة منقوشة نقشاً بديعاً . وبين مجموعة الكتابات الحجرية لوحتان سلجوقيتان كتب عليهما تاريخ ترميم جانب من جامع بني امية في شهور سنة ٤٧٥ واخرى ايوبية تاريخها سنة ٥٧٥ ومجموعة وافرة من شواهد قبور امراء الشام وعلمائها في القرن السابع والثامن ه . ومما يلفت النظر اليه حجرة

من رخام ابيض وعلى القسم الاسفل منها نقوش عربية وعهدها من القرن الثامن للهجرة . واخرى من الفخار عليها نقوش اشخاص وحيوانات وطيور وازهار محكمة الصنع وهذه الجرة فريدة في بابها وهي من صنع العراق في القرن الثالث عشر م

ومن اهم الآثار غير الاسلامية مجموعة زجاجية وهي أجل مجموعات العالم ، ومجموعة مهمة من الآثار التدمرية وهناك رأس تمثال أحد عظماء الحثيين يرجع عهده للالف الثانية قبل الميلاد . ونصب الفرعون سيتي الاول وعليه ذكر انتصاره على الحثيين وطائفة من الآثار الرومانية واليونانية

متاحف بيروت والسويداء وحلب والقدس وعمان

وجمع في متحف بيروت كثير من الآثار الفينيقية وغيرها وأهمها الاواني والحلي التي عثر عليها في مدافن جبيل وفي اقبية معبدها . ويرجع عهد بعضها الى الالف الثالثة وبعضها الى ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد . منها ناووس الملك احيرام المتوفى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وقد نقشت على جوانبه صورة الملك يتناول القرابين من اتباعه وبعض الشعائر الدينية وهو قائم على اربعة اسود . ومما يزيد في شأن هذا الاثر الكتابة الفينيقية التي زُبرت عليه وهي أقدم كتابة عرفت من نوعها حتى اليوم . بين هذه الآثار آنية خزفية نقش عليها اسم الفرعون امنمحت الثالث (١٨٥٠ — ١٨٠٠) قبل المسيح . وآنيتان عليهما امنمحت الرابع وآنية من الرخام جيدة الصنع مع غطائها وكتب عليها بالهيروغليفية ما يأتي : « خدام الاله ابن الشمس فليش امنمحت الى الابد » . وصندوق صغير للحلي من حجر كريم اسود محلى بالذهب وشكله على طراز الناووس وعلى الغطاء كتابة هيروغليفية . وجمعت في هذا المتحف كمية كبيرة من الفخار أهمها الاواني التي عثر عليها في كفر الجرة ويرجع تاريخ صنعها الى الالف الثانية قبل الميلاد . ولآثار جبيل مكانة تاريخية عظيمة وهي من اهم ما عثر عليه حتى الآن في بلاد الشام

وكان في متحف السويداء عاصمة جبل الدروز مجموعة حجرية نفيسة اكثرها من العهد اليوناني والروماني ولكن ضاع معظمها مع الاسف إبان الثورة السورية : ومتحف طرطوس في حكومة العلويين حديث العهد وليس فيه الا مجموعة صغيرة ليست ذات شأن كبير . وأما متحف حلب فلم يخصص له مكان بعد ، ولكن مجاميعه جاهزة ستحفظ فيه متى هيىء المكان . واكثر هذه الآثار حثية واشورية من التي استخرجت في حفريات أرسلان طاش وتل الاحمر وتل ارفاد والتيرت

وفي متحف القدس مجاميع خزفية ومعدنية تبين تطور نهضة فلسطين والادوار التي مرت عليها في أهم عصورها التاريخية كما انهُ يحتوي على عدد من النواويس من العهد اليوناني والروماني وأجملها ما نقش عليهِ صورة معركة بين اليونان والنساء المترجلات (امازون) وطائفة آثار من الحجر البركاني من عهد الفرعون سيتي الاول ورعمسيس الثالث التي وجدت في بيسان . وقد حفظت قطع الجمجمة التي وجدت في الثابغة ويرجع عهدها الا ما قبل التاريخ . واما مجموعة متحف عمان فاكثرها مما يرجع تاريخهُ الى العهد الروماني والبيزنطي

وبعد فقد عرفنا بما تقدم مقدار العناية التي بذلتها البعثات الاجنبية بآثار الشام غير الاسلامية وإعراضهم عن هذه الاخيرة. ولا جرم ان معظم الآثار الاسلامية في بلاد الشام محفوظة في الجوامع والمساجد والمدارس مع محتوياتها وهي تحت تصرف الاوقاف ولذلك يتحاشى الاجانب ما امكن ان يثيروا عواطف عوام المسلمين حتى ان السلطات المتعاقبة تركت لدوائر اوقاف البلاد حرية التصرف بهذه الاماكن المقدسة . وقد اكتفت بان تسدي اليها من حين الى آخر النصائح لبذل العناية بهذه الآثار . ولكن اكثر هذه الدوائر في شغل شاغل عنها . فكل يوم نسمع بضياع اثر او تشويهٍ لا عن قصد منهم بل لانهم لا يقدرون قيمة ما هو تحت تصرفهم ، حتى اصبحت اكثر هذه الامكنة الاثرية في حالة يخشى عليها من الاندراس ، وبذلك تفقد البلاد هذه المفاخر التي تشهد بمدنية السلف العظيمة في أزهى عصور البلاد الشامية . فعسى أن تحذو البلاد حذو شقيقتها مصر وتؤلف لجنة للآثار الاسلامية تعنى بجمعها وتنقذ شؤون الابنية منها

وقد انشأت الجمهورية الافرنسية في دمشق معهداً افرنسيًّا لدرس الآثار وخاصة منها الاسلامية على منوال المعهد الافرنسي في القاهرة . وقد سبق للبعثات الاجنبية ان اسست في القدس معاهد لدرس الآثار مثل المدرسة الاثرية الافرنسية والمدرسة الاثرية الانكليزية والمدرسة الاميركية للابحاث الشرقية ، ولهذه المعاهد فضل كبير بكشف غوامض التاريخ ببلاد الشام القديم. ولم تدع السلطتان الافرنسية والانكليزية في منطقتي سورية وفلسطين باباً الا طرقتاهُ لنشر الدعاية في البلاد الاجنبية عن آثار بلاد الشام ومكانتها . وقد تجلى ذلك في دعوتهم لمؤتمر الآثار الدولي الذي عقد في سورية وفلسطين في شهر نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٦ فكانت نتائجه مرضية. وبفضل هذه الدعاية ترى عدد السياح يزداد في كل سنة . ولا شك ان الشام اذا صرفت العناية بقادتها وطرق مواصلاتها تصبح مقصد السياح من اهل الارض وتجني من ذلك فوائد مادية وادبية لا تقدر